أولاً : حركة المكتبة العربية

اولا : حركة المكتبة العربية

ليس كل القديم رديئا لأنه قديم . كما ان الجديد كله ليس جيدا لمجرد انه جديد . ففى القديم قديم جيد . وفى الجديد جديد لا نفع فيه ولا خير يرجى منه .

واطلاق الاحكام على اى منهما بعمومية وقطعية لا تقبل الجدل . امر ينكره طبيعة العلم ، بمثل ما ترفضه النظرة الموضوعية ، والاحكام المنصفة العادلة .

ولكى نحكم على « كل » القديم بانه لم يعد صالحا ؛ فلنا لابد من العكوف عليه « كله » فى مختلف الوانه وفروعه وفنونه وموضوعاته . كذلك الحال بالنسبة للجديد . والمقصود بالقديم هنا — بطبيعة الحال — هو ما اصطلح على تسميته بالتراث .

والحوار بين التراث والمعاصرة دار طويلا ويدور كثيرا . والجدل بين انصار كل منهما يجب ان يستمر وصولا الى رؤية علمية واعية نافعة . وضبطا لصياغة نظرية أكثر تطورا وواقعية . انطلاقا من حاجة ماسة الى تحويل فكرنا العربى المعاصر الى فكر علمى وثورى واصيل .

ونحن هنا لن نناقش هذه القضية . وان كنا نفرق بالنسبة

للتراث بين جانبين منه : احدهما سلبى مزيف . يجب نبذه على الفور . وهو المتمثل فى الجانب اللاعلمى الذى يوحى بالتخلف أو يشدنا الى الوراء . كذلك فانه يتجسد فيما يناقض مع نضالنا واهداف هذا النضال . وكل مظاهر السلبية والفردية ؛ وما قد يتصل بهما من انتهازية ووصولية . والثانى : ايجابى اصيل . يتحتم احياؤه بعد تقويمه وتصنيفه وتجديده . ولمسه فى كل ما ينقذنا ويخرجنا من التخلف . ويفتح امامنا آفاق العصر . وفيما نراه صالحا لأن يكون ارضية صلبة يمكن أن ننطلق منها لبلورة الشخصية الوطنية والكيان القومى المتقدم .

وقد نجد كتابا من كتب التراث موضوعيا جيدا فى جانب ؛ لكنه سطحى أو سلبى فى جانب آخر . خاصة وأن الأقدمين كانوا يأخذون العلم والمعرفة على أنها كل واحد لا يتجزأ . وينظرون اليها نظرة موسوعية شمولية عامة . فالعالم هو الذى يلم بكل شىء . والأديب أو المثقف هو الذى يأخذ من كل فن بطرف . فعليه أن يحاول معرفة شىء فى اللغة ، والنحو ، والفقه ، والشعر ، والطب ، والأنساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ؛ وما شابه ذلك . وعلى هذا ، فليس من المعقول أن تأتى تآليفهم كاملة فى كل هذه الألوان من المعرفة .

ومن ثم فان عملية احياء التراث — فى تصورى — تستلزم ضرورة تخصيص مجموعات من الدارسين والباحثين والمتخصصين فى كل فرع من فروع العلم والمعرفة . بحيث اتطار العالم ؛ لتنقب

عن الأماكن التى يوجد بها ما يمت الى تراثنا العربى بصلة . وتتوفر عليه : لمعرفة اصله وحقيقته وصحته . بقصد دراسته وتحليله .

فدارسو التاريخ والاقتصاد والاجتماع والفقه والعقائد والقانون والنظريات السياسية والفلسفية والفنون ، وغيرها ؛ يستطيعون الاسهام بشكل ايجابى وفعال فى تنفيذ فكرة احياء التراث بمعناه العام . نحن فى حاجة الى جهود جماعية متضافرة متحدة ومتعاونة . حتى لا تكون نظرتنا الى التراث قاصرة على ما يتصل منه باللغة ، أو بالشعر ، او بالفقه ، أو بالاجتماع ، ليس غير .

وربما يحتاج احياء كتاب من كتب التراث الى اكثر من متخصص فى اكثر من علم وفن ومجال من مجالات النشاط الفكرى والعقلى والعملى . وعلى ذلك فانه يجب أن تعطى لهذه المجموعات صلاحية وحرية الحركة لا التوقف ، والانتشار لا الانحصار .

بمعنى ألا تكون ثمة قيود على عملها وفكرها وحركتها وبحثها وتنقيبها . ثم ان جانب الاشراف على هذا المشروع يلزم ألا يقتصر على دولة عربية واحدة . وانما تشترك فيه كل الدول العربية بلا استثناء ، بمتخصصيها وعلمائها وما لديها من كنوز مخبوءة ، وأموال متوافرة . على ان يكون لها بعدئذ ما تحتاج اليه من نتاج عمل هذه المجموعات . ولتكن لذلك هيئة عربية عليا باسم « المجلس القومى العربى لاحياء التراث » .

فلابد من أن يؤخذ التراث مأخذا واقعيا عمليا جديا جماعيا ؛

لا نظريا أو مكتبيا او فرديا أو عشوائيا . وعلى اساس منهجى . وعلمى ، وموضوعى .

وسوف يظل كل حديث لنا « عن » التراث أو « حوله » بمثابة احاديث وخطب المناسبات اذا لم يصحبه اهتمام حقيقى وفعلى . مصحوب بعمل ايجابى جاد « فى » التراث ، وليس « عنه » أو « حوله » .

جميل جدا ان تثار بين الفينة والفينة بعض المشكلات الدراسية أو القضايا النقدية او المسائل الأدبية ، التى قد تتخذ « من » التراث محورا لها وموضوعا . أو التى تحاول ربطه بقضايانا المعاصرة : ادبية ونقديه واجتماعية وسياسية واخلاقيه وحضارية ؛ او تلك التى تسعى الى أن تلتمس « فى » التراث بعض العون ؛ لتاكيد شخصيتنا ولاثبات وجودنا الحضارى ، وتأثيرنا القوى الممتد منذ القديم .

ومع هذا كله ، يبقى النظر جزئيا وقاصرا ؛ ما لم ينطلق من التعامل الفعلى معه ، قريبا جدا منه ، وليس بعيدا أبدا عنه . بمعنى أن البدء بالتراث نفسه هو اول حقيقة ينبغى أن نواجهها . اذ يلزم ان يكون التراث نفسه هو شغلنا الشاغل : ان ننكب عليه . ونعايشه ؛ وننقب فيه ، ونختار منه ، ثم نوجه نحوه فرق الباحثين المتخصصين فى كل ميدان من ميادين العلم والمعرفة ، وعلى مستوى العالم العربى كله .

وكم كنا نود ان تبدأ هذه المحاولة بتجربة صغيرة ، تستهدف

بادىء ذى بدء ، اختيار عشرة كتب من تراثنا في الطب ، والفلسفة ، والأخلاق ، واللغة ، والأدب ، والتاريخ ، والاجتماع ، والطبيعة ، والرياضيات ، والفنون ، مثلا . وأن يتفرغ لها متخصصون — كما ذكرنا — كل في مجاله . يتناولونها بالاستقراء ، والتحليل ، والدراسة ، والتنقيح . ويقدمونها الى العالم تقديما موضوعيا ، كبداية ، او كحلقة في سلسلة متصلة الحلقات ، على أن تكون الرؤية التى ينطلق منها تناول هذه الكتب رؤية واحدة . وأن يكون الهدف واضحا ، وكذلك الحرص على ابراز الجوانب الايجابية والقيم الجادة والأفكار العلمية ، وتجسيدا لجهود التى اسهم بها العرب في الحضارة الانسانية والعالمية .

وقد فعل شيئا قريبا من هذا — وان اختلفت الدوافع والوسائل وميدان التجربة — « روبرت داونز » في كتابه (كتب غيرت وجه العالم) .

فقد اختار ستة عشر كتابا من الكتب العالمية ، التى رأى أنها — من وجهة نظره — غيرت وجه العالم ، بسبب الآراء والنظريات والمبادىء التى انطوت عليها . وقام بتلخيص تلك الكتب لتعريف القارىء بها تعريفا عاما . واقتصر اختياره على كتب العلوم ، والعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

مثال ذلك وقوفه عند كتاب (العقل السليم) لتوماس بين ، و (الأمير) لنيقولا مكيافيللى ، و (ثروة الأمم) لآدم سميث ، و (النسبية) لألبرت اينشتاين ، و (تفسير الأحلام) لفرويد ،

و (اصل الأنواع) لداروين ، و (راس المال) لكارل ماركس ، و (كوخ العم توم) لهاربيت بليشنر استو . السيدة التى حررت الرقيق فى أمريكا وقضت على استعباد الانسان لأخيه الانسان .

وطبعا ، لم يختر كتابا من كتبنا العربية . وكانها لم تكن ذات تاثير . وكأن العالم العربى ليس جزءا من العالم . الم يكن الطبيب العربى « ابن النفيس » على سبيل المثال . هو أول من وصف الدورة الدموية وصفا دقيقا . وقال بأن عملية تنقية الدم تحدث فى الرئتين بسبب اختلاطه بالهواء الخارجى عند التنفس ؟ ! .

انه لم يشر اليه مجرد اشارة وهو يتحدث عن « وليام هارفى » الطبيب الانجليزى صاحب كتاب (الدورة الدموية) . علما بان « ابن النفيس » كان اماما فى علم الطب ، وله فيه تصانيف غالية ، وتواليف رائعة . منها كتاب (الشامل فى الطب) ويقع فى ثلاثمائة صفحة . و (شرح القانون لابن سينا) و (المهذب فى الكحل) . ومن الطريف انه ألف مقالة عن النبض اثناء وجوده فى حمام باب الزهومة بالقاهرة . ويروى عنه انه قال : (لو لم اعلم ان تصانيفى تبقى عشرة آلاف سنة ما وضعتها) . هناك ايضا كتاب (كتب غيرت تفكيرنا) ١٩٣٩ لصاحبيه « مالكولم كاولى » و « برواد سميث » اللذين اختارا اثنى عشر كتابا ، كان لها فى راى رجال التربية والمؤرخين والمحاضرين والنقاد والناشرين الأمريكيين اكبر الأثر فى تكييف العقلية الأمريكية الحديثة .

وكذلك كتاب « كتب هزت مشاعر العالم » ١٩٤٥ للكاتب الانجليزى هوارس شيب .

وهكذا لم يلتفت أحد من هؤلاء الى كنوز المكتبة العربية التراثية . وبخاصة أن الأمة العربية ظلت تحمل وحدها عبء الحضارة والثقافة والفكر عشرة قرون على الأقل ؛ فى حين كان العالم الغربى غارقا فى جهالة القرون الوسطى منذ القرن الرابع الميلادى الى عصر النهضة الأوربية فى القرن السادس عشر . وهذه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها أو النيل منها . لكنها تحتاج من الدارسين والباحثين العرب الى نوع من الوعى العلمى المعمق بها ، الذى لا يقف عند حد التسليم المطلق ؛ وانما ينبغى أن يكون مستندا الى الممارسة ، والبحث والتدقيق . وتأكيد ذلك بالنظر فيما خلفه الآباء والأجداد ، والعمل الجاد على احيائه ؛ ونشره ، وتوعية الناس به . ولو أننا تتبعنا المؤثرات الايجابية الفاعلة لتراثنا فى الحضارة الأوربية ، لاستغرق منا ذلك وقتا طويلا . والشيء الثابت فعلا أن هذا التأثير كانت وسيلته الأولى هى « الكتاب » ، وما زخرت به المكتبة العربية .

ففى دراسة للدكتور احمد سعيد الدمرداش عن الرياضيات عند العرب : وكيف أنها كانت ينبوع الفكر الرياضى الحديث ، يؤكد مجموعة من الحقائق . مثال ذلك ، أن علم التفاضل ينبوعه عربى ورائده « ويجن رستم القوهى » . وكذلك علم الجبر والمقابلة ، ورائده « الخوارزمى » . كما أن حساب المثلثات ينبوع جداوله عربى ورائده « البيرونى » . وأن الكسور العشرية مصدرها عربى ورائدها « جمشيد الكاشى » . وهو أيضا رائد نظرية ذات الحدين . ومنطلق علم الميكانيكا من عند العرب ، ورواده « أبو البركات هبة الله » و « الفخر الرازى » و « ابن الهيثم » . ولا يخلف

المصدر كثيرا بالنسبة الى علم المناظر ، الذى ينسب الى رائده العربى « الحسن بن الهيثم » .

ومعروف أن الترجمة من العربية الى اللاتينية بسرت نقل العلوم العربيه فيما بعد الى أوربا . فقد عنى اللاتين أول ما عنوا بترجمه كثير من الكتب العربية فى الرياضة ، والفلك ، والطب ، والكيمياء ، والنبات ، والحيوان ، بل والسحر والتنجيم . وبذلك تهيأت لهم معرفه كبار علماء الاسلام ، أمثال جابر بن حيان والرازى فى الكيمياء ، والخوارزمى وابن الهيثم فى الرياضه والبصريات ، والبتانى والبتورجى فى الفلك ، وابن زهر وعلى بن رضوان فى الطب ، الى جانب الفلاسفه الأطباء .

ويذهب الدكتور ابراهيم بيومى مدكور الى أن اللاتين عرفوا كبار فلاسفة الاسلام جميعا . وترجموا لعدد غير قليل منهم . فترجموا للكندى بعض رسائله الفلسفية ، الى جانب ما ترجموا من كتبه العلمية . ويظهر أن صورة الفارابى كانت لديهم أوضح . وقد ترجموا له كتاب « احصاء العلوم » فى القرن الثانى عشر مرتين . وترجموا مقالته فى العقل ، التى كان لها شأن كبير فى تكوين نظرية المعرفة فى القرن الثالث عشر . وعنى اللاتين عناية خاصة بابن سينا ، فترجموا موسوعته الفلسفية كلها تقريبا . وما ان ترجمت اجزاء من كتابه « الشفاء » حتى تلقفتها الأيدى فى مختلف العواصم الاوربية . ونسخت منها عشرات المخطوطات .

وكتاب « مقاصد الفلاسفة » للغزالى ، من الكتب التى ترجمت

فى عهد مبكر على أيدى « جند سالينوس » . أما كتاب « تهافت الفلاسفة » فانه لم يترجم الى اللاتينية الا فى أخريات القرن الخامس عشر . كما عرفت أوربا عن طريق اللاتين « ابن ماجة » اول فلاسفة الأندلس ، واستوفتهم رسالته فى الاتصال .

وكان للفيلسوف العربى « ابن رشد » القدح المعلى . فترجمت الى اللاتينية شروحه على ارسطو فى صورها المختلفة ، من صغيرة وكبيرة ومتوسطة . ويبلغ عددها ثمانية وثلاثون شرحا ، ترجمت مرتين فى القرنين الثالث عشر والسادس عشر . وترجم كتابه « تهافت التهافت » فى القرن الرابع عشر عن أصل عربى مرة وعبرى مرة أخرى .

ويمتد تأثير المكتبة العربية الفلسفية فى أوربا امتدادا واضحا من خلال ما كتبه الفيلسوفان العربيان « ابن سينا » و « ابن رشد » . قرأوا لهما فى عناية ، ودرسوهما دراسة عميقة ، أخذوا عنهما ما اخذوا ، ورفضوا ما رفضوا . وكان لهما تلاميذ واتباع ، وخصوم ومعارضون ؛ فأثرا فى الفلسفة المسيحية تأثيرا كبيرا ، واحدثا فيها تيارات فكرية واضحة . وكان هناك تيار سينوى (نسبة الى ابن سينا) وآخر رشدى (نسبة الى ابن رشد) . وامتد اثرهما الى عصر النهضة والتاريخ الحديث .

ولا نكاد نجد احدا من كبار رجال القرن الثالث عشر الا وله صلة بابن سينا ، أو بابن رشد ، أو بهما معا . وفى فلسفة « القديس توماس الأكوينى » جوانب سينويه وأخرى رشدية . ويلاحظ أن المدرسة الفرنسسكانية ذات اتجاه سينوى واضح ، ورئيسها

القديس « دنس اسكوت » يقرب من ابن سينا قربا ملحوظا . والمدرسة الدومينكانية لم تخل من آثار رشدية . وان عارضت ابن رشد واستصدرت قرارات كنسية بتحريم كتبه . ورئيسها القديس « توماس » اقرب اليه منه الى ابن سينا .

واذا كان البعض يذهب الى ان « جابر بن حيان » (عاش خلال النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى والجزء الأول من القرن التاسع) ، قد استمد اصوله الفكرية من تراث اليونان ، الذى أخذ منه فكرة الطبائع الأربع الأولية التى منها نشأت الكائنات جميعا وهى : الحرارة ، والبرودة ، واليبوسة ، والرطوبة . فانه لم يقف عند حد التأثر . وانما اخذ هو فى التأثير فيمن جاء بعد من الكيميويين . فقد كان علم الكيمياء هو أخص خصائصه . وهو أول من اشتهر علم الكيمياء عنه . بل ان المؤلفات الأوربية تصفه بانه كيموى العرب الأول . وانه أول من يستحق لقب «الكيموى» من المسلمين . وذلك لتقدمه فى العلوم الطبيعية ، كما تثبت ذلك مصنفاته المشهورة وتآليفه الكثيرة فيها . وقد حرص على ان يضع لعلم الكيمياء قواعد علمية تقترن باسمه . كما كان ارسطو أول من وضع لعلم المنطق قواعده واصوله .

ولجابر بن حيان اكثر من خمسة وخمسين كتابا . منها « الخواص » ، و « الأصول » ، و « الأرض » ، و « التراكيب » ، و « الشمس » ، و « الأحجار » ، و « ما بعد الطبيعة » ، و « التمر » ، و « المجردات » ، و « الأسرار » ، وغيرها . ومما قد يدل على اهتمام العالم الغربى به ، ان الذى جمع مخطوطاته من مختلف المكتبات فى أوربا ، هو « بول كراوس » ، ونشرها فى كتاب (مختار

رسائل جابر بن حيان) وذلك بالاضافة الى مجلدين الفهما فى جابر بن حيان .

وعرفت اوربا فيلسوف الحضارة العربية فى النصف الاول من القرن الثالث الهجرى « يعقوب بن اسحق بن الصباح بن عمران بن اسماعيل بن محمد بن الاشعث الكندى » ٨٠١ — ٨٦٤ م ، ١٨٥ — ٢٥٢ هـ . الذى بلغت مؤلفاته ٢٤١ كتابا موزعة على سبعة عشر نوعا . لم يبق منها الا بضعة وخمسون كتابا . طبع منها بالفعل اربعون . وله أكثر من عشرين رسالة تضمنت مذهبه فى الطب والعلاج ، وفى تدبير الأصحاء ، وفى كيفية العلاج . ولا يذكر الكندى الا ويشار الى شهرته فى الطب ورسوخ قدمه فى هذه الصناعة . واعتبرته اوربا اللاتينية احد كبار الفلكيين فى العالم . ووقفت عند ابرز سماته فى كتبه الكيميائية مثل : كتاب كيمياء العطر ، وكتاب التنبيه على خدع الكيميائيين ، وكتابه فى ابطال دعوى من يدعى صنعة الذهب والفضة . فضلا عن مؤلفاته المنوعة فى الفلسفة ، وفى المنطق ، وفى الحسابيات ، وفى النجوميات ، وفى الهندسيات ، وفى الموسيقى ، وفى الجدليات ، وفى النفسيات ، وفى السياسات . وغير ذلك مما يدل على سعة ثقافة ، وعمق اطلاع ، ونشاط جم فى التاليف .

وتدوين التاريخ يعتبر واحدا من الاتجاهات الرئيسية التى حكمت حركة المكتبة العربية على مر العصور . وان الناظر فيها سيجد ازدهارا وتنوعا فى المؤلفات التاريخية . وقد ظهر منهم مؤرخون اصلاء ذوو مناهج ونظريات ، كابن خلدون ، ومسكويه ، وابن

طباطبا ، والسخاوى ، وغيرهم ممن اضافوا من المناهج والخطط ما يستقيم به البحث التاريخى . من ذلك مثلا انهم حققوا الحوادث الكبرى ، وعالجوها من وجهة نظر واضحة خالصة نزيهة لوجه الحق، بعد تنيقتها من الزيف . كما فعلوا فى وقعة صفين ، ومقتل مالك بن نويرة ، وحروب الردة ، وسقوط بغداد ، وموقف الخليفة المستعصم من التتار ، ونسب الدولة الفاطمية ، ونكبة البرامكة .

ومن الملاحظ أن المؤلفين العـــرب جهدوا فى التأريخ للبلدان والمدن ، بما لم يعهد نظيره فى اية امة . فهناك « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادى . و « تاريخ مكـــة » للأزرقى . و « تاريخ دمشق » لابن عساكر . و « تاريخ جرجان » للسهمى . و « تاريخ حلب » لابن النديم . وكانوا يتتبعون تاريخ البلد جغرافيا ، ومن حيث الرجال الذين ولدوا به أو نشأوا به او وفدوا عليه .

وتحفل المكتبة العربية بعدد وافر من الكتب التى حاولت تصنيف المشتغلين بالتأليف ، أو بالكتابة ، أو بالتفسير ، او بالطب ، أو ما شابه ذلك . وسعت الى تقييمهم ووضعهم فى طبقات ومستويات معينة . وهو اتجاه قد يندر توفره لدى مؤرخى الأمم الأخرى . فقد الف العرب فى « طبقات الأدباء » كياقوت الرومى . وابى البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى فى « نزهة الألباء ، فى طبقات الأدباء » . وطبقات الأطباء مثل « طبقات الأطباء والحكماء » لأبى داود سليمان بن حسان الأندلسى المعروف بابن جلجل . و « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لموفق الدين ابى العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن

يونس السعدى الخزرجى المعروف بابن ابى اصيبعة . وطبقات النحاة كالسيوطى فى كتابه (بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة) . وطبقات الشعراء لابن المعتز ، ، وطبقات الشعراء للجزرى . بل تخصصوا فى طبقات المذاهب . كطبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى . وطبقات الحنابلة لابن رجب . وطبقات الحنفية للترشى . وهناك « طبقات المفسرين » للسيوطى ؛ و « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، و « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » لأبى نعيم الأصبهانى ، و « مختصر طبقات الشافعية » لاحمد بن محمد الأسدى ، و « طبقات المفسرين » لمحمد بن على بن أحمد الداودى المالكى ، و « صفوة الصفوة » لابن الجوزى .

وكانوا فى تاريخهم لا يكتفون بالسماع والنقل ، لأنهما مظنة الخطأ . وانما راحوا يتثبتون ، ويقارنون ، ويرجعون الى الأصول، والشهود ، والمعاينة . فى محاولة لتقريب الواقع التاريخى وتجسيده وتمثله صحيحا غير مزيف . ومن انصار هذا الاتجاه المسعودى ، وعبد اللطيف البغدادى ، وابن خلدون . وحققوا الأسماء احترازا من وقوع الوهم بسببها ؛ كما فعل المرزبانى فى « معجم الشعراء » ، والخطيب البغدادى فى كتابه « تقييد العلوم » ؛ والنووى فى « تهذيب الأسماء واللغات » ، والذهبى فى « المشتبه ». بالاضافة الى تحقيقهم المواليد والوفيات ، بعد ان خشى عليها من الفوضى والخطأ ، كما فعل ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، ومحمد بن أحمد الكتبى فى « فوات الوفيات ».

ولن من يقرأ كتب التاريخ الصادرة عن المؤلفين العرب ، سوف

يجد انهم راعوا فى كتابة التاريخ الأسلوب المرسل الذى لا تطغى فيه العبارة على الفكرة أو الحقيقة التاريخية . بحيث يسهل وصول الواقعة او الحادثة التاريخية الى القارىء ، دون تعقيد او التواء . حتى لا تعطى الفرصة للتأويل وكثرة التفاسير . وحتى تربط القارىء بما وقع فعلا لا تخيلا او تخمينا .

أما فيما يتصل بعلم الاجتماع الحديث او « السوسيولوجيا La Sociologié » ، فان المكتبة العربية تشهد بأن مقدمة ابن خلدون يرجع اليها الفضل فى انشاء هذا العلم . حيث اقامه على دعائم سليمة ، قبل كل من « فيكو Vico ١٦٦٨ — ١٧٤٤ » الايطالى . و « كتليه Quetélet ١٧٩٦ — ١٨٧٤ » البلجيكى ، و « أوجست كونت Auguste connte ١٧٩٨ — ١٨٥٧ » الفرنسى . وذلك على يد واضع المقدمة « عبد الرحمن ابو زيد ولى الدين ابن خلدون الحضرمى ٧٣٢هـ — ٨٠٨هـ ؛ ٢٧ مايو ١٣٣٢ — ١٦ مارس ١٤٠٦ » أى قبل أولئك جميعا بنحو اربعة قرون .

تعالج المقدمة ما يسمى الآن « الظاهرات الاجتماعية Phénoménes Sociaux الذى يطلق عليه ابن خلدون « واقعات العمران البشرى » او « أحوال الاجتماع الانسانى » . وهى عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التى يتخذها أفراد مجتمع ما اساسا لتنظيم شئونهم الاجتماعية ، وتنسيق العلاقات التى تربطهم بعضهم بالبعض الآخر . وهى ظواهر تنقسم من حيث وظائفها الى : نظم عائلية تتعلق بشئون الأسرة ، وتحدد حقوق أفرادها وواجباتهم .

ونظم سياسية ترتبط بشئون الحكم فى الدولة ، وتحديد سلطاتها ، واختصاصات كل سلطة منها ، وصلتها بالمؤسسات الأخرى ، وبالأفراد ، والعلاقات التى تربط الدولة بالدول الأخرى . ونظم اقتصادية تتجه الى شئون الثروة فى المجتمع ، وتحدد طرائقها . ووسائل الانتاج ، وادواته ، والتوزيع ، والاستهلاك . ونظم قضائية ، واخرى خلقية ، وثالثة دينية ، ورابعة لغوية ، وجمالية . تلك التى يترسمها المجتمع فى شئون الجمال ومظاهر الفن من ادب وشعر وموسيقى وغناء وتصوير .

وهناك ما يسمى بنظم « البنية الاجتماعية » او « نظم التكتل » التى تعرفها مدرسة « دوركايم » بالنظم المورفولوجية او « المورفولوجيا الاجتماعية La morphologié Sociale . تلك التى تنظم الطريقة التى يتجمع بها الأفراد بعضهم مع البعض . اى انها تشرف على تنسيق شئون التجمع والتكتل . كالقواعد التى تنجم عنها ظواهر التكاثف والتخلخل فى السكان بالنسبة للمساحة التى يشغلونها . وكالقواعد التى تنظم شئون الهجرة من القرى الى المدن ، ومن المدن الى القرى ، ومن الدولة الى خارجها . لأن الهجرة من الأمور التى تطرأ على التكتل نفسه ، فتغير من أوضاعه . كل هذا يكشف عن أن مقدمة ابن خلدون جسدت فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية ، وشمولها لجميع أنواع النشاط والسلوك والنظم المشار اليها .

وعرض ابن خلدون فى الفصول العشرة الأولى من الباب الثانى للظواهر المتصلة بالبدو والحضر واصول المدنيات . وفى الباب

السادس تناول الظواهر التربوية ، والعلوم واصنافها ، والتعليم وطرقه . وقد درس ابن خلدون فى المقدمة ذلك كله لا لمجرد وصف الظواهر والدعوة اليها ؛ ولكن لتحليلها تحليلا يؤدى الى الكشف عن طبيعتها والأسس التى تقوم عليها ، والقوانين التى تخضع لها . اى أن تدرس كما يدرس العلماء ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء ووظائف الأعضاء . وهذا الوجه من الدراسة لا يتاح الا لمن ثبت لديه ان الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ، ولا حسب ما يريد لها الأفراد ؛ وانما تسير فى نشأتها وتطورها ومختلف احوالها حسب قوانين ثابتة مطردة ، كالقوانين الخاضع لها القمر فى تزايده وتناقصه ، والنهار والليل فى اختلافهما باختلاف الفصول . ولعلها حقيقة لم يستطع أحد التوصل اليها قبل ظهور مقدمة ابن خلدون .

مما يلفت النظر ايضا لمن يتابع حركة المكتبة العربية ، انها حافلة بالمؤلفات الخاصة بالموسيقى . ويكفى أن نشير الى اهتمامات للفارابى بالموسيقى ، والى مؤلفاته فيها . مثل « كتاب الموسيقى الكبير » ، وكتاب فى احصاء الايقاع ، وكلام فى النقلة مضافا الى الايقاع ، وكلام فى الموسيقى ، وكتاب « احصاء العلوم » الذى يتضمن جزءا خاصا بعلم الموسيقى . ويبدو ان الكتاب الأول حظى باقبال الكثيرين ، وتأثرهم بـــه . ويذهب البعض الى اعتباره أهم كتبه الموسيقية . لذا فانهم حققوه وطبعوه وترجموه الى اللغات الأوربية .

كان الفارابى — كما يبدو من مقدمة الكتاب وشمول أبحاثه —

يطمح الى ارساء علم جديد كامل ، على غرار ما فعل ارسطو فى المنطق والعلم الطبيعى . وربما كان الفارابى قد شعر أنه بالامكان وضع نظرية عامة فى الفن لتفسر ما هو مشترك فى الفنون الشائعة فى زمانه : الموسيقى والشعر والرسوم . وذلك على غرار نظرية المحاكاة التى يفتتح بها أرسطو كتاب « الشعر » . ففى هذا الكتاب ، وعلى وجه التحديد من مدخله (٤٧ — ٢٠٢) وخاتمته (١١٧٠ — ١١٨٩) نظرية حمالة — بالمعنى المعاصر — تجيب عن الأسئلة الآتية : ماهى الموسيقى ؟ ماذا تثير فى الانسان ؟ وما قدرتها التعبيرية ؟ وما معايير جمالها ؟ وعلى اى اساس تبنى ؟ ! . ويلجأ الفارابى الى قسمة صناعة الموسيقى الى صناعتين : الموسيقى النظرية ، والموسيقى العملية . ويذهب الى أن الذوق الفنى يتغير مع تعاقب الاجيال ؛ ومن ثم لا يتمتع بخاصية الثبات التى تجعله يخضع للبحث العقلى .

يقول ابن ابى اصيبعة فى (عيون الأنباء) الجزء الثالث صفحة ٢٢٤ عن الفارابى : (كان فى علم صناعة الموسيقى وعملها قد وصل الى غايتها واتقانها لا مزيد عليه ؛ ويذكر أنه صنع آلة غريبة يستمع منها الحانا بديعة) . وقد اهتم الباحثون فى اوربا والبلاد العربية بكتاب الموسيقى الكبير ، لأنه اهم كتب الموسيقى فى التراث العربى . ولأنه يضم معلومات قيمة تتناول جوانب الموسيقى العربية .

ولا تقف حركة المكتبة العربية فى هذا المجال عند حد مؤلفات الفارابى . فهناك الفيلسوف العربى اسحق بن يعقوب الكندى ،

وبحثه الشائق الذى تضمنته احدى المخطوطات العربية المحفوظة بدار الكتب الحكومية ببرلين بعنوان « رسالة الكندى فى اجزاء خبرية فى الموسيقى » . وفيها يتحدث عن اتصال وظائف الحواس الخمس وترابطها النفسى بعضها ببعض ، والموازنة بينها فيما يختص بالموسيقى . وقد تخطى الكندى فى هذا البحث مسافة السمع القصيرة ، فخرج من الألحان الى الألوان ، حتى يقفنا على طبيعة كل لون وتأثيره فى النفس ، ويضع بين الحواس النظائر والأشباه . فالألوان كالألحان تعبر عن المعانى النفسية . وكذلك الحال فى العطور والزهور ؛ انها ايضا موسيقى صامتة لها اثرها وخطرها . الى أن يتم الكندى البحث بمقابلة شائقة لأقيسه جميع الحواس مقترنة بنتائجها التى تنتهى اليها .

ويجب الا ننسى — ونحن بصدد تتبع حركة المكتبة العربية التراثية — ان نذكر مؤلفا عربيا أحرق كتبه عام ٤٠٠ هـ . ويذكر له ياقوت الرومى فى « معجم الأدباء » ثمانية عشر كتابا ، هى : الهفوات لابن الصابى ، الصداقة والصديق ، الرد على ابن جنى فى شعر المتنبى ، الامتاع والمؤانسة ، الاشارات الالهية ، الزلفى ، المقابسات ، رياض العارفين ، تقريظ الجاحظ ، مثالب الوزيرين ، الحج العقلى اذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى ، الرسالة فى صلات الفقهاء فى المناظرة ، الرسالة البغدادية ، الرسالة فى اخبار الصوفية ، الرسالة فى الحنين الى الأوطان ، البصائر والذخائر ، المحاضرات والمناظرات . وله رسالة فى العلوم ، ورسالة الحياة ، ورسالة فى علم الكتابة ، والنوادر ، والكلام فى الكلام ، والهوامل والشوامل .

الى غير ذلك من الكتب التى افتقدتها المكتبة العربية . فان احراق الكتب حال دون وصول الكثير من مصنفاته الينا .

وغريب حقا ان يحدث هذا من مؤلف عربى ، قيل عنه انه الناطق بلسان الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى . وانه مسجل هذا القرن . وان له دورا حضاريا بارزا فى تلك الحقبة من تاريخ العرب . بوصفه مفكرا موسوعيا حاول أن يمزج الفلسفة بالأدب ، وان يقدم للجمهور حكمة شعبية تكون فى متناوله .

لعل ظروف نشأته ، وما مر به فى حياته من محن ، كانت وراء هذا التوار الغريب . فقد ولد ابو حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى ببغداد سنة ٣١٠ هجرية ، لأبوين فقيرين . اذ كان ابوه تاجرا متنقلا يبيع نوعا من التمر المعروف باسم « التوحيد » . لكنه حرص — كعهد العلماء العرب — على ان يأخذ من كل علم بطرف . فكان من ذلك اهتمامه بدراسة الفقه والحديث وانشغاله بالكلام والتوحيد ، وعنايته بمسائل المنطق والفلسفة ، وانصرافه الى البحث فى اللغة والنحو ، ثم اشتغاله اخيرا بالتصوف . ويبدو أنه بعدما لاقى ما لاقاه من شظف العيش وآلام الحياة ، واليأس من جميع الناس ؛ رأى أن علمه اصبح عديم الجدوى . وشق على نفسه أن يدع كتبه لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضه اذا نظروا فيها . فأقدم على احراقها . لكنه هو نفسه يعود فيطلب التماس العذر : (لقد كل البصر ، وانعقد اللسان ، وجمد الخاطر ، وذهب البيان ، وملك الوسواس ، وغلب اليأس ، من جميع الناس . ولو علمت فى أى حال غلب على ما فعلته ؛ وعند اى مرض ، وعلى اية

عـرة وفاته ، لعرفت من عذرى اضعاف ما ابديته ، واحتججت لى باكثر مما نشرته وطويته) .

ومعروف أنه توفى سنة ٤١٤ هـ ، اى بعد احراقه الكتب بأربعة عشر عامـــا . ومات عن مائة واربعة أعوام . وكتابه « الامتاع والمؤانسة » مثال للثقافة ، والاطلاع الغزير . اذ فيه مسائل من كل علم وفن : ادب ، وفلسفة ، وحيوان ، وأخلاق ، وطبيعة . وبلاغة ، وتفســـير ، وحديث ، ولغة ، وسياســـة ، ومتاعه . ومجون ، وتحليل لشخصيات فلاسفة العصر وادبائه وعلمائه . وتصوير للعادات واحاديث المجالس . والكتاب مقسم الى أربعين ليلة . وهى ليالى فكر وفن وادب وفلسفة . يبحث حياة الفلاسفة والمفكرين والباحثين ، وكيف يبحثون ، وفيم يفكرون .

وثمة كتاب ينفرد فى موضوعه ، ويحدد قيمة مؤلفه « الملل والنحل » للامام ابى الفتح محمد بن عبد الكريم الشـهرسـتانى المتوفى ٥٤٨ هجرية . وهو عالم من ايران عاش فى القرن السادس الهجرى . قدم خلاصة وافية عن كل دين أو عقيدة عرفها الانسان منذ الخليقة . وكل تفسير غير دينى ، خرج به الانسان ليفسر الكون حسب أهوائه . بعيدا عن التعصب ، معتمدا على ما قدمه المفكرون فى الديانات المختلفة ، وما ابتكره الفلاسفة من نظريات خاصـــة . ويتميز الكتاب بأنه يناقش الآراء التى يعرضها برحابة صـــدر . ويقدمها للقارىء كاملة غير منقوصة . ثم يترك للقارىء ان يحكم بنفسه . ويبدو عدم انحياز المؤلف البعيد عن التعصب ، فى كونه يرى أن العلم ليس احتكارا للمسلمين وحدهم ، حتى فيما يتصـــل

بامور الدين والفقه . حقيقة ان هذا الكتاب قد سبقه بحوالى قرن كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » للامام ابى محمد على بن أحمد بن حزم ، لكن الموضـــوعية التامة ، والحياد العلمى ، والمناقشة الجادة ، والصدق فى الرجوع الى المصـــادر والمظان الأصلية ؛ تجعل كتاب « الملل والنحل » للشهرستانى متفردا .

وتسهم مصر فى اثراء حركة المكتبة العربية ، ابان العصـــر الأيوبى . حين نبغ طائفة كبيرة من أهل العلم والأدب ؛ وحيث كثر المؤلفون أثناء القرن الرابع والخامس والسادس ؛ وتناولوا بالكتابة كل علم وفن . وتحتفظ المكتبة العربية بأعداد كبيرة لا سبيل الى حصرها من المراجع الهامة التى تنسب الى مؤلفين مصريين وغير مصريين فى هذه المرحلة . كالمسعودى المؤرخ (توفى ٣٤٦ هـ من أشهر كتبه (مروج الذهب) فى التاريخ . وأبو عمرو الكندى (توفى ٣٥٥ هـ) ومن مؤلفاته (أخبـــار ولاة مصر وقضـــاتها) . وأبو عبد الله المقدسى (توفى ٣٧٥ هـ) وهو رحالة وضـــع كتابا فى الجغرافيا سماه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) . والجوهرى (توفى ٣٩٨ هـ) ومعروف بمعجمه اللغوى (الصحاح) . وأبو منصور الثعالبى (توفى ٤٢٩ هـ) الذى الف كتبا كثيرة فى الأدب ، اظهرها (يتيمة الدهر) . والامام الغزالى (توفى ٥٠٥ هـ) صاحب (احياء علوم الدين) الذى جمع فيه بين الشريعة والتصوف والأخلاق . والزمخشرى (توفى ٥٣٨هـ) برع فى اللغة والأدب والبلاغة . وكتبه (الكشاف) فى التفسير ، و (أساس البلاغة) فى اللغة ، معروفة ومتداولة . وعماد الدين الأصبهانى (توفى ٥٩٧هـ) ومن أشهر كتبه

(خريدة القصر) ويحتوى على تراجم لكثير من الشعراء .

وجدير بالذكر انه بعد حادثة التتار التى اجتاحت — فى منتصف القرن السابع الهجرى — أمامها كل الكنوز الأدبية الفنية ، وأتت على جميع الثروات العلمية التى احتفظت بها خزانة المكتبة العربية ؛ جاء دور مصر المملوكية ؛ لتقوم بما يجب عليها نحو هذه الذخيرة الادبيـــة والفكريـــة والعلمية . ومن ثم فانها اقدمت على ميدان الموسوعات العربية ، ليكون لها دور فيه . من ذلك مثلا أن النويرى (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم المعروف بشهاب الدين النويرى) صاحب موسوعة (نهاية الأرب) ولد حوالى عام ٦٧٧هـ بقرية من قرى محافظة بنى سويف اسمها « نويرة » . وكتابه يقع فى ثلاثين جزءا . يقوم على خمسة فنون كل فن منها يحتوى على خمســة أقســام : الفن الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية . الفن الثانى : فى الانسان وما يتعلق به . الفن الثالث : فى الحيوان العــامت . الفن الرابع : فى النبات . الفن الخامس : فى التاريخ .

كذلك الحال بالنسبة لكتاب (مسالك الأبصار) لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى : المولود فى الثالث من شهر شوال سنة سبعمائة للهجرة . والذى مات بدمشق سنة ٧٤٩ هـ . وكتابه فى أربعة عشر جزءا . وهو الآخر موسوعة جغرافية فى الأغلب الأعم . أتى فيها المؤلف بوصف الممالك الشرقية وما اشتملت عليه برا وبحرا . وهو قسمان ، أولهما فى الأرض ، وثانيهما فى سكان الأرض .

يضاف الى هذا تلك الموسوعة اللغوية الكبيرة المعروفة باسم (لسان العرب) ، لأبى الفضل محمد بن على الافريقى المصرى جمال الدين المعروف بابن منظور . ولد سنة ٦٣٣ هـ ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧١١ هـ . ويقال انه ترك بخط يده نحوا من خمسمائة مجلد ، غير (لسان العرب) . والمؤلف فى هذه الموسوعة اللغوية يجمع بين كتب ستة هى : كتاب «التهذيب» للأزهرى ، و «الصحيح» للجوهرى ، و « حواشى ابن برى على الصحيح » ، و « المحكم » لابن سيده ، و « المخصص » له كذلك ، و « النهاية » لابن الأثير . وبلغت مواد اللغة فى هذا المعجم ثمانين الف مادة .

أما القلقشندى ٧٥٦ هـ — ٨٢١ هـ صاحب كتاب (صبح الأعشى) فانه ولد بمدينة « قلقشنده » وهى تقع الى الجنوب من مركز طوخ بمحافظة القليوبية . ويعتبره مؤرخو الأدب العربى واحدا من أعظم بناة الثقافة العربية فى العصور الوسطى . وليس ثمة شك فى الاجماع على ان كتابه (صبح الأعشى) هو اخطر كتبه على الاطلاق . وهو الكتاب الذى يعرف به الرجل عبر العصور . ويذكر به دائما بين المؤلفين . فلا يمر اسم القلقشندى فى مجال من مجالات العلم والأدب الا على انه مؤلف (صبح الأعشى). اذ ان الكتاب يدور حول فن واحد من فنون الكتابة ، وهو « الكتابة الديوانية » . ويقع الكتاب فى أربع عشرة مجلدة لا تقل الواحدة منها عن أربعمائة صفحة ، وقد تصل الى ستمائة .

نراه فى هذا الكتاب يتتبع كل فن من فنون المكاتبات التى تصدر عن ديوان الانشاء فى كل بلد من بلاد الاسلام كالعراق والشام

ومصر والحجاز . ثم لا يكتفى بذلك حتى يصف ما كان من أمر هذه الفنون الكتابية كلها فى بلاد المغرب والأندلس . كما أنه بين حال اللغة العربية فى عصورها المختلفة ، وانتشار هذه اللغة فى بلاد كثيرة منها فارس وما وراء النهر وبلاد الروم ومصر وبلاد افريقية والمغرب الأقصى والاندلس وبلاد الهند والصين وبعض بلاد أوربا .

ثم انه يقف عند الأسباب التى دفعت باللغة العربية الى النجاح حتى أصبحت لغة الأدب والعلم والحكم والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين ، ولغة القرآن الكريم ! وفى الكتاب شرح للنظم الادارية التى سارت عليها الدول الاسلامية فى كل بقعة من بقاع الأرض ظهر فيها الدين الاسلامى . وتحظى مصر باهتمام خاص فى هذا الكتاب . اذ يعنى بوصف مصر من جميع نواحيها . ويهتم بالحديث عن النيل ، وزيادته ، ونقصانه ، وخلجانه ، وزرعه . ويبين خطط الدبار المصرية على نحو يذكر بما فعله المقريزى فى خططه .

الى جانب هذا فانه يتناول فنون التحرير الرسمى مثل : فن تحرير العهود والمبايعات . وتحرير الايمان . وتحرير كتب الأمان . وتحرير عقود الصلح . وتحرير كتب الهدنة . وتحرير المسامحات . وتحرير الاطلاقات والوصايا والاقطاعات . بمعنى انه يعتبر معرضا كاملا لآثار الكتابة الديوانية منذ عرف المسلمون ديوان الانشاء الى زمان المؤلف .

وثمة قضية هامة تنبه اليها المؤلف ، وعالجها وفقا لرؤيته الخاصة . اراد أن يعاون الكتاب فى التعرف الى الأدوات والأسلحة التى تمكنهم من الاشتغال بهذه الحرفة ، من الأمور العلمية والعملية . يقول (وصاحب هذه الصناعة كما يقول ابن الأثير يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء والماشطة عند جلوة العروس والى ما يقوله المنادى فى السوق

على السلعة . فما ظنك بما فوق هذا وذاك) . وقد ذكر القلقشندى من الأدوات اللازمة للكاتب تسعة عشر نوعا هى — فى نظره — جماع الثقافة العربية ، وهى عناصرها المختلفة ؛ كالشعر والقرآن والحديث والحكم والأمثال وكلام الخطباء ورسائل البلغاء . أضاف الى ذلك حديثا فى فضل الكتابة ، ومدح أماثل الكتاب . وتحدث عن مدلول الكتابة ، وبيان معنى الانشاء ، وترجيح النثر على الشعر . وآداب الكتابة ، وصفات الكاتب . كل ذلك من خلال مقدمة ، وعشر مقالات ، وخاتمة .

ازاء الكم العظيم الذى تحتفظ به المكتبة العربية من تراثنا الأدبى على نحو خاص . جهد الباحثون من أجل تيسير مهمة الاطلاع على فروع هذه المكتبة التراثية المتنوعة . فراحوا يصنفونها ، ويحددون مسار مجموعاتها . ويعرضون لأهم ما تتناوله مراجعها العامة والخاصة ، ومصادرها التاريخية ، والأدبية ، والنقدية ، واللغوية ، وما شابه ذلك .

ويحلو لكثير من دارسى المكتبة العربية الأدبية أن يخططوا لهيكلها العام على النحو التالى : —

انهم يقسمون المكتبة العربية قسمين رئيسيين . أولهما ما يصطلحون على تسميته « مراجع عامة » ، وثانيهما هو « المراجع الأدبية الخاصة » .

يضم القسم الأول «الفهارس» ، مثل « الفهرست » لابن النديم ، و « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة ، و « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » لفان ديك . هناك ثلاثة أنواع

من الفهارس أولها : تلك الكتب التى تصنف لنا الثقافة المعروفة فى زمن ما . تحت عناوين هى أسماء العلوم . ثم تورد تحت كل عنوان أو علم ، أهم الكتب المصنفة فيه . مع شىء من التعريف بقيمة هذه الكتب ، وبطريقة تاليفها ؛ أو تبويبها . ثم التعريف بمؤلفيها ، وذكر شىء عن حياتهم وعصرهم واساتذتهم . ويمكن لنا أن نعد ما كتبه « ابن خلدون » فى مقدمته ، و « الفارابى » فى كتابه « تقسيم العلوم » من هذا الصنف . فهما من أقدم الكتب التى تعرفنا بأنواع وبنواحى الثقافة العربية .

ثانيها : تلك الكتب التى تتبع ترتيبا أبجديا ؛ اما لأسماء الكتب مثل « كشف الظنون » ؛ واما لأسماء مؤلفيها .

ثالثها : البيليوجرافى ؛ وهو نوع من التأليف يجمع بين تاريخ الأدب، والارشاد الى الكتب . ومعناه جمع الكتب التى يرجع اليها الباحث فى موضوع معين . والى جانب ذلك فانه يعطى نبذة عن تاريخ هذا العلم ، وعن موضوعاته ، مثل « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » ، و « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان .

وفى المكتبة العربية التراثية لا يوجد ثمة تفريق بين المطبوع والمخطوط . بل ان الجامع لهذه الفهارس قد يكتب عن كتب سمع عنها دون أن يراها . وربما يكون قد اطلع على أسمائها فى فهارس اخرى . اللهم الا الفهارس التى تنص على انها تحصى المطبوع وحده . كما أن ماشرى الكتب القديمة الذين يراعون الأصول العلمية فى

تشرها ؛ يلحقون بتلك الكتب فهارس ، تكمل الكتاب ، وتيسر الرجوع اليه .

وكتاب « الفهرست » لابن النديم ، هو اقدم الفهارس واجلها قيمة . وابن النديم عاش فى بغداد الى أواخر القرن الرابع الهجرى . وكانت صناعته الوراق . وكانت له دكاكين ونساخ ينسخون له الكتب .

هذا الكتاب ليس مرتبا ترتيبا ابجديا ؛ وانما هو مقسم حسب الموضوعات . فاذا اردت ان اعرف اسماء الكتب التى الفها الجاحظ مثلا . لابد لى من ان ابحث عن مكانة الجاحظ . وهذا يستلزم ان أعرف عصره ؛ ومعلومات عنه ، وعن الفنون التى ابدعها واسهم فيها . لكن الكشاف الذى أضيف اليه ، والذى يضم اسماء المؤلفين ، والكتاب ، والشعراء ، والأعلام ، مرتبة ترتيبا ابجديا ، وبجانب كل اسم المواضع التى يوجد فيها ذكره فى صفحات الكتاب الأصلى ؛ قدم خدمة جليلة للقارىء . انه يرشده الى الأماكن التى يجد فيها كلاما عن الجاحظ او عن ابى الفرج الأصفهانى وهكذا .

قسم ابن النديم كتابه ابوابا او كما سماها «مقالات» . تشمل جميع معارف عصره ، من علوم لغوية ، الى علوم ادبية ، وعقلية ، وطبيعية ؛ واخبار شعبية ، وقصص . وجعل من بين هذه المقالات مقالة خاصة عن اصحاب « النحل » الذين وجدوا قبل الاسلام ، كالصابئين . وكانت ديانتهم مزيجا من مانوية الفرس ووثنية اليونان ، وشىء من الفلسفة اليونانية . وهذه المقالة وان كانت تبدو غريبة وسط تاليفه ، فانها تعد من اهم المراجع فى هذه النحل .

قدم ابن النديم كتابه بمقدمة وصف فيها لغات الأمم المختلفة ، وطرقهم فى الكتابة ، والخطوط المختلفة التى كانت تستعمل فى الدولة الاسلامية . بينما تقف المقالة الأولى من مقالاته العشر عند الكلام عن الكتب المنزلة ، أى الكتب المقدسة ، والقرآن الكريم خاتمتها . اذ يتحدث عن لغته ، وتدوينه ، وقرائه المشهورين . وتتسم طريقة ابن النديم فى كل مقال بسمات محددة . فهو يبدأ مقاله بمقدمة عن نشأة العلم الذى يتحدث عنه . ثم يذكر مشاهير من الفوا فيه واحدا بعد واحد . وكلما ذكر واحدا ترجم له ترجمة مختصرة . ثم يشير الى أهم مؤلفاته . وفيما يتعلق بالكتب التى رآها بنفسه ، نجده لا يكتفى بذكر العنوان ، بل كثيرا ما يذكر حجم الكتاب ، بالورقة التى فيها عشرون سطرا . وهو يقول انه راى الكتاب بنفسه ؛ اذا كان فعلا قد رآه . واذا كانت للكتاب أكثر من نسخة ، اشار الى ذلك ، وعين الأجود منها . وقد طبع هذا الكتاب فى المانيا ١٨٧٢ طبعة فلوجل Flugel والحق به كشاف باسماء الاعلام العربية والفارسية واليونانية ، وغيرها مكتوبة بالحروف الأجنبية .

« كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة ، نموذج للفهرست الأبجدى الذى يجمع بين عناوين الكتب واسماء الفنون . عندما يتحدث عن فن من الفنون ؛ فانه لا يكتفى بشىء من تاريخه ، بل انه يرشد عن أهم الكتب التى الفت فيه . وصاحب الكتاب تركى الأصل ، عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى ؛ ولذلك فاننا نجده يذكر الكتب التى لم يلتفت اليها صاحب الفهرست . قضى معظم حياته فى القسطنطينية ، منشغلا بالتاليف والتدريس .

واستمر فى جمع مواد كتابه اكثر من عشرين سنة . ويذكر من تحدثوا عن الكتاب انه يشمل عناوين خمسة عشر الفا من اسماء الكتب ، وأسماء نحو تسعة آلاف وخمسمائة مؤلف .

قدم حاجى خليفة لمؤلفه بمقدمة حول معنى العلم ، وطرقه ، وأنواع التاليف . واشار الى بعض المصطلحات التى يستخدمها كتاب الشروح فى تاليفهم . وقد طبع الكتاب فى مصر ، طبعته مطبعة بولاق القديمة . ثم طبع فى القسطنطينية نقلا عن الطبعة المصرية . وكلتاهما فى جزاين . وهناك طبعة فلوجل ١٨٥٥ فى سبعة اجزاء . آخر جزء منها يشمل الفهارس ١٨٥٨ . وثمة كشافان اثنان . واحد بعناوين الكتب التى لم ترد فى مواد مستقلة ، والآخر بأسماء المؤلفين . وهذا مهم لأنه يجعل الكتاب مرشدا جامعا على الطريقة الألفبائية . ونظرا لأن المؤلف من اصل تركى ؛ فان الأتراك اهتموا بكتابه ، فطبعوه مرة ثانية فى طبعة جديدة من جزاين ١٩٤٢ . كما ذيل له اسماعيل باشا بذيل دون فيه أسماء الكتب التى ظهرت الى زمنه ؛ ليكون تكملة للكتاب الأصلى .

اما « ادوارد فانديك » الذى عاش معظم حياته فى مصر ، وكان أبوه مستشرقا هاجر الى بيروت وعاش فيها الى ان مات ؛ فانه حاول ان يؤدى كتابه (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع) وظيفة التاريخ للأدب . وكلمة الأدب هنا بمعنى الثقافة بوجه عام . لذا فانه وفاء بوظيفة تاريخ الأدب يقسم كتابه ثلاثة اقسام . اولها : زمن

النهضة ، أى منذ ابتداء الثقافة العربية الى القرن السابع ، وقت سقوط بغداد . ثانيها : زمن الخفضة ، وهى مرحلة ما بعد النهضة ، من القرن السابع الى القرن الثانى عشر . ثالثها : زمن اليقظة ، بعد الخفضة او كما نقول النهضة الحديثة . وتحت كل عصر من هذه العصور تقسيم موجود فى كل قسم من الأقسام الثلاثة ، يتحدث عن الشعر والنثر والجغرافيا والتاريخ والكتب الدينية والفلسفة والعلوم . وعند الكلام عن كل موضوع يعطى فكرة عامة عنه . ويترجم لأهم المؤلفين فيه . ويورد اسماء كتبهم .

لكنا وان كنا نلاحظ أن عنوان كتابه يكتفى بما هو مطبوع ؛ فانه لم يلتزم بذلك . بل انه أحيانا ما كان يتعرض بالحديث عن المخطوطات . فضلا عن انه لم يلتزم بالترتيب الزمنى التاريخى . فكثير من الكتب التى ألفت فى عصر النهضة فات المؤلف اثباتها فى مكانها ووضعها فى عصر الخفضة بعد النهضة . كذلك فانه فى العصر الأول وضع كتبا من العصر الثانى ، لأنها كانت شروحا للكتب القديمة ، أو اختصارا لها ، لسبب من الأسباب . وللكتاب كشاف فى آخره يعيننا على الرجوع الى ذكر مواضع الكتب او مواضع ذكر المؤلفين . والكتاب فى جزء واحد ، يقع فى ٥٢٦ صفحة . وقد طبع فى القاهرة ١٨٦٩ من غير الملحق . ثم ما لبث أن طبع فى ١٨٩٧ ، مضافا اليه الكشاف .

يتعرض المؤلف فى المقدمة لأهم الأماكن التى تحتفظ بالكتب العربية ، مثل مدينة برلين ، والاسكوريال ، وهو قصر قرب مدينة مدريد عاصمة اسبانيا ، ومدينة فلورنسا ، وكوبنهاجن ، ولايدن ،

ولندن ، وأوبسالا ، وأكسفورد ، وباريس ، وروما ، وبطرسبورج وفيينا ، وبغداد ، والقسطنطينية ودمشق وتونس والمغرب ومصر .

ويلاحظ انه فى الباب الأول المعنون (اعتناء الافرنج باللغة العربية) يتعرض لأقدم الكتابات المحفورة باللغة العربية ؛ وللغة العربية خارج الجزيرة العربية ، وللغة العربية فى اسبانيا ، ثم يتحدث عما يسميه اللغة العربية الحديثه « الدارجة » ؛ وعن شروع الافرنج بدرس اللغة العربية ، وقواميس الافرنج للغة العربية ، ومؤلفاتهم فى الصرف والنحو للغة الدراجة ، ومجموعات الأمثال العربية المتداولة لدى العامة ، وحكايات العامة وقصصهم التى جمعها الافرنج .

بعد القسم الأول الخاص بالفهارس ، يأتى دور « المعاجم » . وهى تمثل فى نظر الدارسين لحركة المكتبة العربية القسم الثانى من المراجع العامة . وهم يقسمونها هى الأخرى قسمين : معاجم عامة ، مثل «القاموس المحيط» للفيروزبادى، و «لسان العرب» لابن منظور . و « اساس البلاغة » للزمخشرى ، و « المخصص » لابن سيده ، و « المنجد » للويس معلوف . وهناك المعاجم الخاصة ، التى يقف فى مقدمتها « معجم البلدان » لياقوت الحموى ، و « معجم ما استعجم » للبكرى ، و « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى .

واذا كانت معظم المعاجم متداولة ومعروفة ؛ فان « الكشاف » ليس متداولا بالقدر الكافى لدى عامة المثقفين والدارسين . مؤلف

هذا المعجم هو محمد على الفاروقى التهانوى ، من أهل القرن الثانى عشر الهجرى . والتهانوى نسبة الى تهانة موطنه فى الهند . كتب مصنفه هذا سنة ١١٥٨ هجرية فى عصر اذنت فيه امبراطورية المغول بالأفول . وهو ينطلق من رؤية ترى ان المثل الأعلى للغة العلمية هو تجريد الألفاظ من الرمز والايحـــاء والتمثيل والتشـــخيص . وتخليصها من آثار الانفعال ؛ ثم تحديد دلالاتها فى نطاق الاصطلاح المتعارف عليه بين اهل العلم ، حتى لا تفضى العبارات الى لبس يعوق الالمام بالأحكام العقلية التى تتألف منها القضايا والقوانين . فالعلم ـــ عنده ـــ لا يعدو ان يكون جملة من القضايا القائمة عـــلى علاقات المفردات بعضـــها بالبعض ، بحيث يؤول الأمر فى نهاية المطاف الى البحث فى الألفاظ والكلمات من حيث انها مادة وطرائق البرهان .

ولعل التوسع فى العلوم ، وكثرة الألفاظ المشتركة بينها ، مما لا يتأتى استيعابه فى كتب اللغة والمعاجم التى اقتصرت عـــلى المعانى اللغوية ؛ ادى الى افراد هذا النوع من البحث بالتصنيف ، ودفع بعض العلماء والباحثين الى الاهتمام به ، والتخصص فيه . وممن الفوا فى هذا الموضوع ، الخوارزمى ، المتوفى ٣٨٧ هـ فى كتابه (مفاتيح العلوم) والشريف الجرجانى المتوفى ٨١٦ هـ فى رســـالة (التعريفات) التى رتبها على الحروف الهجائية ، وأبو البقاء الحسينى المتوفى ١٠٩٤ فى كتاب (الكليات) . ويأتى (كشاف اصطلاحات الفنون) ليستقصى فيه التهانوى بحث المواضـعات العلمية ، متدرجا

من الدلالة اللغوية الى غيرها من الدلالات فى شتى العلوم نقلية كانت او عقلية . وتوسع فى ايراد المسائل التى اقتضاها البحث ، معتمدا على الكتب الأصيلة فى العلوم المختلفة ، وعلى آراء الثقات من العلماء والمؤلفين .

وتمثل كتب التراجم العامة القسم الثالث من المراجع العامة . مثل « وفيات الأعيان » لابن خلكان و « الأعلام » للزركلى .

تبقى بعدئذ « المراجع الأدبية الخاصة » ، وهى تتحدد فى خمسة اتجاهات : (ا) كتب الأدب العامة ، كالبيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، وادب الكاتب لابن قتيبة ، وعيون الأخبار له ايضا ، والأمالى لأبى على القالى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه . (ب) كتب المحاضرات ، مثل « المستطرف فى كل فن مستظرف » . (جـ) الكتب الخاصة بثقافة كتاب الدواوين وفى مقدمتها « صبح الأعشى » للقلقشندى . (د) كتب المختارات : كالمفضليات والأصمعيات ، وجمهرة اشعار العرب للقرشى ، وحماسة ابى تمام ، وحماسة البحترى ، والحماسة الشجرية والحماسة البصرية وحماسة العبيدى . ان القدماء أولوا عملية الاختيار اهتماما بالغا مما يدل على انها كانت نشاطا نقديا ، وكانت تخضع لنوع من التمحيص شبيه بالتمحيص الذى كان يقوم به النقاد فى جعل الشعراء طبقات . (هـ) كتب التراجم : طبقات الشعراء لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الأدباء لياقوت ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى .

عنيت المكتبة العربية التراثية اكبر العناية بنقد الأدب . بل ان المنهج الفنى فى النقد الأدبى أخذت اصوله ترسخ ، وفروعه تتسامى : فى دراسات مطولة ، وفى كتب حافلة . وحسبنا فى هذا المقام ان نشير الى عدد من الآثار التى اهتمت بالنقد الأدبى ، وبالبحث عن أسرار بلاغته ، وفى مقدمتها كتاب (قواعد الشعر) لثعلب ٢٩١ ، و « عيار الشعر » لابن طباطبا العلوى ٣٢٢ ، وكتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر ٣٣٧ ، و « نقد النثر » له ، وكتاب (البديع) ثم (طبقات الشعراء فى مدح الخلفاء والوزراء) ٢٩٦ لعبد الله بن المعتز ، وكتاب (الصناعتين) و (الفروق اللغوية) و (ديوان المعانى) لأبى هلال العسكرى ٣٩٦ ؛ وكتاب (العمدة) ٤٦٣ و (تراضة الذهب) لابن رشيق القيروانى ، وكتاب (سر الفصاحة) لابن سنان الخفاجى ٤٦٤ ، وكتاب (أسرار البلاغة) و (دلائل الاعجاز) لعبد القاهر الجرجانى ٤٧١ . وكتاب (البديع فى نقد الشعر) لأسامة بن منقذ ٥٨٤ . ومؤلفاتابو الفتح ضياء الدين ابن الأثير (المثل السائر فىادب الكاتب والشاعر) و (كتاب الوشى المرقوم فى حل المنظوم) و (الاستدراك فى الرد على رسالة بن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعانى الطائية) . وكتابا (بديع القرآن) و (تحرير التحبير) لابن أبى الاصبع المصرى ٦٥٤ . وكتاب (جواهر الألفاظ) لقدامة بن جعفر ؛ و (الوساطة بين المتنبى وخصومه) لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ، و (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) ، و (الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء) لأبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى ، و (اعجاز القرآن) لأبى بكر الباقلانى . وكتابا (الشعر

والشعراء) و (معانى الشعر) لابن قتيبة . و (الفلك الدائر على المثل السائر) لابن أبى الحديد . وكتاب التشبيهات لابن أبى عون . و (سر صناعة الاعراب) و (التمام فى تفسير أشعار هذيل) لابن جنى . و (التبيان فى علم البيان) لابن الزملكانى . وكتابا (فن الشعر) من كتاب الشفاء ، و (المجموع أو الحكمة العروضية فى كتاب معانى الشعر) لابن سينا . وكتاب (المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع) بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالك . وكتاب (الرسالة العذراء فى موازين البلاغة ضمن رسائل البلغاء) لأبن المدبر . وكتاب (الجمان فى تشبيهات القرآن) لابن ناقيا . وكتاب (البرهان فى وجوه البيان) المعروف بنقد النثر ، لاسحق بن ابراهيم بن وهب . وكتاب (محولة الشعراء) للأصمعى . وكتاب (الأقصى القريب فى علم البيان) للتنوخى . و (التمثيل والمحاضرة) ثم (نثر النظم وحل العقد) للثعالبى . و (قواعد الشعر) لثعلب . و (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) لحازم القرطاجنى . و (الابانة فى سرقات المتنبى) للعميدى . و (الايضاح فى علوم البلاغة) للقزوينى . و (احكام صنعة الكلام) لأبى القاسم محمد بن الغفور الأندلسى الكلاعى . و (البلاغة) للمبرد .

لولا خشية ارهاق القارىء لذكرنا مزيدا من الكتب التراثية النقدية ، التى تعرضت للشعر وقواعده ، واساليب كتابه ، وسرقاتهم . وللنثر واتجاهاته . وللغة واصولها . والموازنات بين الكتاب والشعراء . لكن حسبنا هنا أن نشير الى ثلاثة فقط ممن

اسهموا فى ارساء بعض القواعد والأصول النقدية فى تراثنا الأدبى العربى . ونحن قد سجلنا اسماءهم او اسماء كتبهم هنا أو هنالك عرضا من قبل .

اولهم ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ٢١٣ هـ - ٢٧٦ هـ الذى قيل عنه (كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه) ، لأن له مؤلفات متعددة اربت على الخمسين ، فى اللغة . وفى الأدب ، وفى الدين ، وفى المعارف العامة ، وفى النقد . وتدور كتبه الأدبية حول تربية الذوق والملكة الابداعية ، وتحبب اللغة الى الدارسين . وكان يستهدف ارشاد طبقة الكتاب وتعليمهم . وكتابه (ادب الكاتب) خير شاهد على هذا الاتجاه الداعى الى ثقافة الكتاب والمؤلفين . وتمتاز كتبه التى تدور حول المعارف العامة بالالمام بضروب المعرفة الانسانية . ولعل اصدق ما يمثلها كتاباه (المعارف) و (عيون الأخبار) .

وكتابه (الشعر والشعراء) من أقوم ما كتب . فيه ادب وتاريخ ونقد . ومقدمته جيدة جدا ، اودع فيها مذهبه النقدى . وهو من أوائل المؤلفين الذين عنوا بوضع مقدمة لكل مؤلف من مؤلفاتهم تبين الغرض منه ، والدافع الى تاليفه . ومقدمة هذا الكتاب بخاصة من اعظم ما خلفه ابن قتيبة من الآثار الأدبية . وضع فيها مذهبا جديدا فى تقويم الشعر والشعراء . يدل على جرأته وثورته على التقاليد العتيقة . قوم الشعر من حيث هو شعر ، دون نظر الى قائله . ثم تناول دواعى الشعر ، ومنها

الطبع والشوق والطرب والغضب . واورد الأمثلة على اجادة بعض الشعراء لفنون من الشعر وتخلفهم فى بعضها بسبب تلك الدواعى . وهذا الكتاب مصدر رئيسى من المصادر التى لا يستطيع باحث أن يغفلها .

وقد طبعت المقدمة (كتاب الشعر) فى ليدن ١٨٧٥ ، ثم طبع المستشرق « دى جويه » الكتاب كله بقسميه « الشعر والشعراء » فى ليدن ١٩٠٢ ، ثم طبع بمصر عدة طبعات . والكتاب فى مجموعه من اوائل كتب النقد التى تمتاز بالراى الجرىء والمنهج الواضح . كما انه وضع اصول النقد المعروفة فى عصره . وجمع قدرا لا بأس به من مقاييس النقاد واحكامهم . مع اجتهاد ومسايرة لظروف الشعر الجديد واتجاهاته واساليبه . ومواجهة جريئة لمقاييس اللغويين والمتزمتين الذين درجوا على تحكيم اصول الشعر القديم ومعاييره الموروثة .

ثانى المؤلفين النقاد الذين نرغب فى الاشارة اليهم هو « عبد القاهر الجرجانى » المتوفى سنة احدى وسبعين واربعمائة (لم تعن اسرته بتسجيل اليوم الذى ولد فيه ، فظل هذا اليوم مجهولا لدى مؤرخيه) . والمسائل التى اثارها فى كتابه (دلائل الاعجاز) ترتبط كلها بالمعانى التى تستفاد من الجملة عندما توضع على نحو خاص من تقديم أو تأخير ، وذكر او حذف ، وتعريف او تنكير ، وتوكيد او عدم توكيد . الى غير ذلك من الوان الصياغة . وقد ربط من جاء بعده بين هذه الأبواب وسموها « علم المعانى ».

ولا ريب فى ان الفضل فى ابتكار هذا العلم يعود الى عبد القاهر وحده . لأن مسائل هذا العلم لم تدرس قبله ، ولم تعالج على النحو الذى قام به عبد القاهر ..

وفضل عبد القاهر فى مسائل « علم البيان » يبدو فى محاولة تحديد موضوعاته ، وذكر مسائله ؛ ومعرفة سر بلاغة اقسامه ، والوقوف عند امثلتها يستوحى سر جمالها . وذلك أمر لم يقم به بلاغى قبل عبد القاهر . ولقد صار ما وضعه عبد القاهر من اساسيات هذا العلم جزءا رئيسيا ثابتا فى علم البيان . واذا ما رجعنا الى كتاب كالايضاح ، الذى اصبح الصورة النهائية لما انتهت اليه البلاغة العربية ، وجدنا آثار عبد القاهر فيه واضحة جلية . ووجدنا ما وصلت اليه مسائل البيان قد بدت فيها جهود الرجل متميزة بين ما زيد عليها من مسائل العلم . كما أنه نجح فى التوفيق بين التفكير الأدبى الذوقى والمنهج الفلسفى العلمى . وذلك باستثارة الذوق الى ادراك الجمال ، ثم محاولة تصنيف ما يهدى اليه الذوق ، ووضعه فى اطار علمى ذى قواعد وقوانين .

ولا شك ان عبد القاهر الجرجانى اثر فى كثير من المعاصرين ، ممن اهتموا بدراسته وتحليله ، والاتفاق معه ، او الاختلاف حوله . فالشيخ محمد عبده أول من نبه الى « دلائل الاعجاز » و « اسرار البلاغة » . وقراهما دروسا فى الأزهر . والدكتور طه حسين يرى انه قد تم على يد عبد القاهر التوفيق بين البيانين العربى واليونانى ؛ لأنه الف كتابين : اسرار البلاغة ،

ودلائل الاعجاز ، وهما يعدان بحق انفس ما كتب فى البيان العربى . ويقرر أنه اذا كان الجاحظ هو واضع اساس البيان العربى حقا ؛ فان عبد القاهر الجرجانى هو الذى رفع قواعده واحكم بناءه .

ويرى الدكتور شوقى ضيف أن عبد القاهر الجرجانى استكشف علما جديدا هو علم المعانى وقواعده واصوله . وانه لا يقف على هذه المعانى الا « من يكون مهيئا لادراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها . ويكون له ذوق وقريحة » . وكانه احس بان فلسفته اللغوية التى صورها فى التعابير والاساليب ليست كافية وحدها لفهم الجمال البيانى فيها ، فلابد أن يسندها الذوق . وقد سندها به فعلا فى اثناء تطبيقه لنظريته على النصوص ، اذ يقول : انظر اللفظة ، انظر موضعها ، ان وقعها جيد ، ان لها اهتزازا فى النفس ، انها تروقك . ونحو ذلك مما يجعل العلة ترد الى الذوق لا الى العقل .

ولم يكتف عبد القاهر بهذا العلم الجديد الذى احدثه فى قياس الجمال الأدبى فى التعابير والأساليب ، فقد ذهب يحاول بيان الأسرار والدقائق التى تشتمل عليها الصور البيانية من استعارة وتشبيه وتمثيل ومجاز . وحاول فى هذا البيان أن يحتكم الى نظريته فى دلائل الاعجاز ، وان يجعل للمعانى الاضافية فى التعبير أثرا بعيدا فى جمال هذه الصورة الأدبية وما تتميز به من روعة بيانية . وبذلك يتم له وضع علمين من علوم البلاغة ، وهما علم المعانى وعلم البيان .

ومن الحق أن من جاءوا بعد عبد القاهر الجرجانى لم يكادوا يضيفون شيئا يذكر الى اصولهما التى وضعها . بل لقد افسدوها بكثرة تلخيصاتهم وتعقيداتهم الفلسفية . اما عنده فكانت عملا حيا ، لجمال عرضه ، وما حوى هذا العرض من فسح المجال امام القارىء لتذوق النصوص ، واحساس ما بها من متعة ادبية . وقد كانت عنده ملكة ممتازة يستطيع أن ينتخب بها الأشعار التى يستخدمها فى شواهده ، فما يزال ينقب فى الدواوين وكتب النقد حتى يستخرج منها أروع الأبيات ، ويعرضها بطريقة تجعل القارىء يحس حقا أن طاقة تفكيره تتسع . وكل صفحة ، وكل تحليل لبيت او قطعة ، يؤكد البناء الهندسى الذى وضعه فى « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » فهنا وهناك تتلاحق اللبنات وتتضافر الجزئيات ، وتتعاقب القواعد والأصول ، فاذا بك أمام نظريتين كاملتين ، نظرية المعانى ونظرية البيان .

ثالث الكتاب هو ابن رشيق القيروانى ٣٩٠ هـ . وكتابه (العمدة) يتضمن طائفة من الأبواب ، معظمها فى نقد الشعر وصناعته ، وتاريخه ، وما يتصل به من مباحث الوزن والقافية ، والصورة الفنية التى تتصل بفن القول عموما وفن الشعر بخاصة . ويضم ابن رشيق الى ذلك الموضوع الأصيل فى كتابه موضوعات اخرى لا تجمعها والشعر جامعة لا من قريب ولا من بعيد . وهو فيه اقرب الى القول باهمية الفكرة والمعنى منه الى القول باهمية العبارة واللفظ . ويصدر كلامه فى ذلك بقوله : (اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسد) .

قرأ كتاب (العمده) واعجب به واختصره « ابو عمر عثمان بن على بن عمر الصقلى » الذى لقى ابن رشيق وحادثه فى قضية السرقات . ورآه ايضـــا واختصره ونبه على اغلاطه « الاعلم الشنتمرى » ، وسمى مختصره « العمدة والتنبيه على اغلاطه » ، وكذلك اختصره موفق الدين البغدادى . واخيرا كان القفطى على نية أن يضع كتابا عن مؤلفات ابن رشيق . واما عناية المحدثين فانها تتجلى فى انه لا يكاد كاتب يكتب فى النقد والبلاغة الا وهـــو يرجع الى « العمدة » ليستفيد منه ، مستشهدا او ناقلا أو ناقدا . وهـــذا دليل على اكبارهم للكتاب ووضـــعه فى موضـــع الاعتبار والتقدير .

وجهـــود قدامة بن جعفر ت ٤٣٧ هـ فى نقد الشـــعر والنثر معروفة . وهو واحد من الفلاسفة الفضلاء وممن يشـــار اليه فى علم المنطق . ومن ثم فانه حاول أن يخضع الشعر العربى للعقل الفلسفى ، ويشتق له قواعد واصولا مضبوطة . يقول فى مقدمة كتابه : (العلم بالشعر ينقسم اقساما ، فقسم ينسب الى علم عروضه ووزنه ، وقسم ينسب الى علم قوافيه ومقاطعه ، وقسم ينسب الى علم غريبه ولغته ، وقســـم ينسب الى علم معانيه والمقصود به ، وقسم ينسب الى علم جيده ورديئه . وقد عنى الناس بوضع الكتب فى القسم الأول وما يليه الى الرابع عناية تامة ، فاستقصوا امر العروض والوزن وامر القوافى والمقاطع وامر الغريب والنحو ، وتكلموا فى المعانى الدال عليها الشـــعر وما الذى يريد بها الشاعر . ولم أجد احدا وضع فى نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا ، وكان الكلام عندى فى هذا القسم

أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة . فان الناس يخبطون فيه منذ تفقهوا فى العلوم ، فقليلا ما يصيبون ، ولما وجدت الأمر على ذلك وتبينت أن الكلام فى هذا الأمر اخص بالشعر من سائر الأسباب الأخرى ، وأن الناس قد قصروا فى وضع كتاب فيه رايت ان أتكلم فى ذلك بما يبلغه من الوسع) .

وفى ثنايا فصول الكتاب استطاع قدامة بن جعفر ان يضع للنقد العربى اصولا ومعايير يقيس بها الجودة والرداءة فى الشعر . وهو يعالج ذلك معالجة دقيقة . فليس عنده استطراد ، ولا انتقال من موضوع الى موضوع ، وانما عنده الترتيب والتبويب الدقيق ، والاحصاء المنظم ، والتعريف والتحديد والتشريع .

ايا ما كان الأمر فان المكتبة العربية احتفلت بالنقد الأدبى منذ أواخر القرن الثالث للهجرة . وأسهم عدد لا بأس من النقاد العرب القدامى بجهود طيبة ، وآراء صائبة ، ونظرات حكيمة . فى بعض الأمور والمسائل والقضايا التى يناقشها نقاد اليوم .

فقد حرصوا على تحديد مجال البحث الأدبى ، وضبط مفاهيمه . ونصوا على انواع المؤهلات التى تميز العاملين فى هذا الميدان . ووجوب تخليص النقد الأدبى مما قد يجعله يختلط بغيره من الوان النشاط الذهنى ، ووجوب تقريبه من ركب العلم العام . وذلك عن طريق النظر اليه على انه فرع من فروع التخصص لا ينبغى أن يطغى عليه فرع آخر . وأشاروا الى حتمية التخصص فى النقد ، لمحاربة ادعياء هذا العلم الذين دخلوا سوقه دون مؤهلات حقيقية . ووقفوا عند الاستعدادات الفطرية للناقد ،

وتكوينه النقدى ، ودربته . وهى تلك القوة الغامضة التى يتميز بها الناقد عن سواه . ومجال هـذه الدربة هو المادة الأدبية . ودوام النظر فى هذه المادة لا خارجها هو المحك الحقيقى فى تكوين الناقد . والدربة محصورة فى الخبرة الواسعة بالنصوص الأدبية على نحو خاص .

ومن ثم فاننا نلاحظ أن بعض النقاد العرب راح يدرس النصوص الأدبية فى تفاصيلها ، وفى صياغة اجزائها ، لجلاء وجه الجمال فى الجمل والمفردات ، وما تشف عنه من معنى . كما عنى آخرون بالنظر الى العمل الأدبى بوصفه وحدة فنية لها أصولها وقواعدها . وكثيرا ما تلمس أصحاب هذا الاتجاه تلك الأصول والقواعد فى الأدب العربى القديم وتقاليده . وثمة من بحث فى طبيعة العمل الأدبى واهدافه . الى غير ذلك من المسائل النقدية الهامة .

يضاف الى هذا أن المكتبة العربية شهدت نشاطا متزايدا فى الدراسات القرآنية ، والاسـلامية ، وما يتصل بذلك من علوم القرآن ، والتفسير ، والحديث ، والفقه . من ذلك مثلا : الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ) ، وفتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من التفسير للشوكانى (محمد بن على بن محمد ت ١٢٥٠ هـ) ، وجامع البيان عن تأويل آى القرآن للطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ت ١٣١٠ هـ) ، ومجـاز القـرآن لأبى عبيدة (معمر بن المثنى التيمى البصرى ت ٢١٠ هـ) ، واملاء ما من به الرحمن من وجوه اعراب القرآن للعكبرى (أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله ت ٦١٦ هـ) ، ومفاتيح الغيب ، المشتهر بالتفسير الكبير لفخر الدين الرازى ،

ومعانى القرآن للفراء (أبو زكريا يحيى بن زياد ت ٢٠٧ هـ) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (أبو عبد الله احمد الأنصارى ت ٦٣١ هـ) ، وانباه الرواة على انباه النحاه للقفطى ، جمال الدين على بن محمد يوسف ت ٦٤٦ هـ) ، وتفسير القرآن الكريم لابن كثير (الحافظ ت ٧٧٤ هـ) ، وقصص الأنبياء للكسائى (محمد بن عبد الله ت ١٨٩ هـ) ، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير (مجد الدين المبارك بن محمد ت ٦٠٦ هـ) ، والصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها لأحمد بن فارس (أبو الحسين احمد ت ٣٩٠ هـ) ، وبديع القرآن لابن ابى الاصبع ، واعجاز القرآن للباقلانى ، وعرائس المجالس فى قصص الأنبياء للثعلبى (ابن اسحق احمد بن محمد ت ٤٢٧ هـ) ، والمفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهانى (الحسين بن محمد) ، ومعانى القرآن واعرابه للزجاج (أبو اسحق ابراهيم ت ٣١١ هـ) ، والبرهان فى علوم القرآن للزركشى (بدر الدين محمد بن عبد الله) ، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى (محمود بن عمر ت ٥٢٨ هـ) ، وغريب القرآن للسجستانى سهل بن محمد بن عثمان ت ٢٥٥ هـ . وتفسير النسفى ، للنسفى (عبد الله بن أحمد بن محمود) .

وليس من شك فى أن لكل كتاب من كتب التفسير منهجا خاصا ، فمنها ما يهتم بالرواية والتوثيق مع عذوبة الأسلوب ودقة البيان ، كتفسير الطبرى وابن كثير . ومنها ما يعنى بالتطبيق البلاغى كتفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف . ومنها ما يهتم

بالرأى والاجتهاد ، مثل تفسير الفخر الرازى والبيضاوى والنسفى. ومنها ما يكون اهتمامه بمسائل العربية والقراءات ظاهرا كتفسير ابى حيان ، المسمى بالبحر المحيط . ويهتم النيسابورى بذكر القراءات . كما أن تفسير الخازن مفعم بذكر القصص ، ولا سيما الاسرائيليات . وتفسير ابن عربى مترع بالمسائل الصوفية والتأويلات الباطنية . وهناك تفسير البقاعى المسمى بالمناسبات . وقد حرص فيه على بيان مناسبة كل سورة لما قبلها من السور . ثم توضيح مناسبة كل آية لما قبلها من الآيات . وفلسفة مناسبة كل لفظة لما قبلها من الألفاظ .

ولا نستطيع بطبيعة الحال أن نحصى كل ما تضمه المكتبة العربية من مؤلفات وكتب تراثية فى مختلف العلوم والفنون والآداب . فهناك اكثر من مائتى علم وفن اشار اليها حاجى خليفة فى كتابه (كشف الظنون) أسهم فيها العرب الأقدمون اسهاما ملحوظا . حتى كتب الرحلات شاركوا فيها . ومن بين اقدم كتب الرحلات التى قام اصحابها بتصوير الشعوب ونقد احوالها وشئونها الاجتماعية ، نجد سابقة عربقة — كما يقول عبد السلام هارون — لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الاندلسى المتوفى سنة ٥٢٨ قبل وفاة ابن جبير سنة ٦١٤ وعبد اللطيف البغدادى ٦٢٩ وابن بطوطة ٧٧٩ .

هذه فى تصورى هى الخطوط العامة التى دارت فى فلكها حركة المكتبة العربية التراثية . وثمة عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات فى مختلف فروع المعرفة والعلم والثقافة ، لا سبيل

الى حصرها او مجرد الاشارة اليها . فضلا عن عشرات الآلاف مما تجمع للغرب من تراثنا . ويكفى أن نرجع الى كتاب « بروكلمان » — مثلا — تاريخ الأدب العربى ؛ لنقرأ ما فيه من مخطوطات الأدب العربى فى دور الكتب الأوربية . وفهارس المخطوطات العربية فى مكتبة برلين وحدها ، كانت تملأ الى عام ١٩٣٠ عشرة مجلدات ضخمة . وان فهرسة المخطوطات العربية فى خزائن المكتبات الفرنسية ، وصلت الى ما يقرب من عشرين مجلدا . وقد بلغ رصيد معهد شعوب آسيا فى روسيا عام ١٩٦٣ الى اثنى عشر الف مخطوط . وفى خزائن لينتجراد سبعة آلاف مخطوط عربى . وبلغ رصيد معهد الاستشراق فى طشقند عاصمة أوزبكستان اكثر من ثمانين الف مخطوط باللغة العربية واللغات الشرقية . ودخلت أمريكا السباق الدولى على اقتناء مخطوطات تراثنا العربى . اذ يقال أن احد تلاميذ جامعة برنستون القدامى ، أهدى الى جامعته مكتبة فيها ستة آلاف مخطوط عربى كانت فى حوزة احد المستشرقين الانجليز .

وهناك مخطوطات كثيرة تملأ مشهور الخزائن الغربية فى الفاتيكان ، وباليرمو ، والناسيونال فى باريس ، والاسكوريال فى مدريد ، وليدن فى هولندا ، والمتحف البريطانى فى لندن ، وبرلين وفيينا وموسكو ولينتجراد .

فضلا عما هو موجود فى مئات المكتبات الخاصة بعلماء الاستشراق وهواة جمع المخطوطات .

فلنبدأ — اولا — بلم شتات المكتبة العربية التراثية . ثم — بعدئذ وليس قبلئذ — نخطط لما ينبغى ان يكون .